مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies) ج وهران2/ المجلد 10 ع 3 / 16 /06/ 2021
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

نهاية الميتافيزيقا ومولد الإنسان الأعلى
نحو التأسيس لفلسفة الحياة " فريدريك نيتشه أنموذجا"

End of the metaphysics, and the birth of the supreme human...
towards establishing the life philosophy (friedrich Nietzsche sample).

بعارة أمال* Baara Amel baaraamel@yahoo.com	الفلسفة الألمانية المعاصرة	مختبر الفلسفة وتاريخها / العلوم الاجتماعية/ جامعة وهران 02/ الجزائر
أد. سواريت بن عمر Souarit benamar Saraute Omar @yahoo.fr	فلسفة معاصرة	مختبر الفلسفة وتاريخها /العلوم الاجتماعية / جامعة وهران02/ الجزائر

DOI : 10.46315/1714-010-003-009

الإرسال: 2020/06/28 **القبول**: 2020/10/10 **النشر**: 2021/06/16

ملخص:

يصف نيتشه الفكر الميتافيزيقي بالفكر المنحط . لانفصاله وعلوّه عن الحياة ، وعلى هذا الأساس يشنّ نيتشه حملة نقدية لاذعة على كل فكرٍ يركن الحياة في زاوية اللاّقيمة، محاولا إعادة الاعتبار لها، وللإنسان لأجل خلق فكر جديد مجاوز للفكر الميتافيزيقي، فكرٍ يعتنق الحياة ويعيد للإنسان حقوقه المسلوبة باسم المؤسّسات العليا، وأبرز هذه المؤسّسات ، المؤسّسة الدّينية التي سعت إلى طمس كرامة الإنسان وحريته باسم الإله، هذا الإله الّذي قتله نيتشه ليُحِلّ مكانه الإنسان الأعلى القادر على سدّ الفراغ الّذي تركه الإله بعد موته وهو المتمتّع بالقدرة على خلق القيَم الّتي تثبت الحياة وتؤكّدها.

كلمات مفتاحيه: موت الإله – الميتافيزيقا– المؤسسة المسيحية –الإنسان الأعلى – فلسفة الحياة.

Abstract: Nietzsche describes the metaphysical thought as the degenerate one, because of its separation from life. So he launches a critical campaign against every thought that marginalizes life, trying to restore consideration to both of human and life for creating a new thought which transcend the metaphysical thought. Thought that embraces life and restore the stolen human rights in the name of higher institutions, such as the religious ones that restricted human freedom in the name of "God", who was killed by Nietzsche to be replaced by the supreme man who is capable of creating life-assured values.

Keywords: the death of god, metaphysics, Christian institution, the supreme human, the life philosophy.

1.مقدمة:

إنّ العامل الأساسي في فلسفة نيتشه (Nietzsche Friedrich 1844-1900) هو عدم الفصل والتفرقة بين الفكر والحياة ،فوضع حاجزًا بينهما هذا الّذي أدّى إلى نشوء "الميتّافيزيقا

*- الباحث المُرسل: baaraamel@yahoo.com

القديمة " و" نظرية المعرفة المتداولة" ، لذلك كان هدفه من خلال قراءته لتاريخ الفكر الفلسفيّ إنتاج قراءة فلسفية نقدية للإطاحة بكل فلسفة تؤمن بفكر مفارق للحياة بدءًا بـ " السقراطية والافلاطونية والمؤسسة المسيحية " وصولا إلى غاية حداثة عصره ذات التفكير المنحطّ ، قصد إعادة إبداع بدءٍ جديد يؤمن بفلسفة الحياة ، الّتي تعيد الاعتبار إلى الأرض ، والجسد ، والفن ، والغرائز، والأبعاد الحيوية الفاعلة في الإنسان ، ولذلك تبغي هذه الدّراسة الوقوفَ على إشكالية القراءة الفلسفية لمفهوم الإله ، كما صوّرتْه المؤسسة المسيحية ، التي ليست سوى فرع من فروع الميتّافيزيقا ، وعطفا على هذا ننتقل إلى الحديث عن مفهوم الإنسان الأعلى ، ولإثراء هذه الإشكالية نطرح مجموعة من الأسئلة الفرعية المتمثّلة في : ما دلالة مفهومِ الله عند نيتشه ؟ وما صفات الإنسان الأعلى النّيتشويّ ؟ وفيم تكمن المهمة الّتي يوكلها نيتشه إلى هذا الانسان ؟ وهل نجح نيتشه فعلا في تجاوز الفكر الميتافيزيقي ؟

تكمن أهمية هذه الدّراسة في محاولة إعادة الاعتبار للإنسان ، والحياة كاشتغال فلسفيّ جديد في مقابل الاشتغال الفلسفي والميتّافيزيقي القديم ، الّذي نصّب العقل " العقلانية " في الصدارة مهمّشا الإنسان والحياة .

فالثّورة ضدّ العقلانية السائدة، والتّوجّه نحو " فلسفة الحياة" ، عرفت الميلاد قبل نيتشه من خلال الحركة الرومانسية ، الّتي ثارت ضدّ النموذج العقليّ ، وحاولت بث روح التجديد في الحضارة السائدة الّتي تحكمها مفارقات عدّة (العقل – الغرائز) ، (الرّوح – الجسد) ، (العالم العلوي – العالم السفلي) ، حيث كانت السيادة في هذه المفارقات ، لكلّ ما هو مفارق للحياة . لتأتي الرومانسية بهدف تحرير الإنسان من سجن التعالي ، لينعم بالحرية ، الّتي تسمح له باعتناق كلّ ماله صلة بالحياة ، والخيال ، والعاطفة والفن ، ومن ثمّة يكمل نيتشه بعد ذلك مهمة إعادة الاعتبار للحياة ، ليتجلى بعد ذلك الحضور النيتشوي في الفكر المعاصر من خلال دراسات متنوعة تناولت فلسفة نيتشه ، وعلاقتها بالحياة في السّاحة العربية والغربية ، عربيا : نجد كتاب " فلسفة القيم نماذج نيتشوية" لنبيل عبد اللطيف وكتاب " الفن والوهم وابداع الحياة" لسمير الزغبيّ، وفي السّاحة الغربية : نجد كتاب " نيتشه وإرادة القوة " لبيير مونتبلو « Pierre Montebello » ترجمة جمال مفرج ،وكتاب " نيتشه الحياة كنصٍّ أدبيّ" لألكسندر نيهاماس « Alexander Nehamas » ترجمة محمد هشام ...إلخ .

من خلال ذلك يُعتبر مفهوم الإنسان الأعلى مفهومَا جوهريًّا في الفلسفة النيتشوية ، فهو ذلك المخرَج الّذي يقيمه نيتشه خارج حدود الميتّافيزيقا الغربية ، وقد تناوله في جلّ كتاباته وبالخصوص في كتابه " هكذا تكلّم زرادشت" الّذي أعلن فيه قدومه بقوله " إلى الأمام أيّها الراقون لقد آن لطود

المستقبل أن يولد، لقد مات الله ، ونحن نريد أن يحيا الإنسان المتفوّق ". (نيتشه ، ف،2014، ص 322).

النّاظر في هذا النّص يجد دلالته على أنّ عصر حكم الله قد ولّى عند نيتشه ، وقد بزغ فجرُ عصر جديد ، يكون الإنسان الأعلى سيّدا عليه ، فولادةٌ مثلِ هذا الإنسان الأعلى القادر على تجاوز الفكر الميتّافيزيقيّ يستدعي قتل الله ، فإذا كان الاهتمام متمحورًا حول الله، وكلّ شيء يتم باسمه ، فإنّنا مع نيتشه ننتقل إلى منعطف فلسفيّ جديد ، وهو الّذي يجعل من الإنسان الأعلى الحقيقة الوحيدة المعترفَ بها ، فالإله لم يعد موجودًا.

وقبل الإبحار أكثر في دلالات مفهوم الإنسان الأعلى عند نيتشه سنتوقف أوّلًا عند دلالات فكرة " موت الإله" عنده.

2/موت الاله :

إنّ الإله الّذي يتحدث عنه نيتشه كثيرا في كتاباته ، ويشن عليه حملة شرسة هو ذلك الإله الّذي يوحي بالنظم الميتّافيزيقية ، إنّه ذلك الإله المتعالي عن العالم الأرضي ، إنّه الإله غير المنبثق من حياة الإنسان ، ومن ثمّة فهو " الإله المجرَّدُ من شروط الحياة المتنامية ، ومن كل ما هو قوة وشجاعة ." (نيتشه ،ف،2011، ص 46).

ذلك أنّ مفهوم الإله الموجود من منظور نيتشه قد تم شرعه من خلال التمثلات المسيحية ، هذه المؤسسة الدّينية الّتي وجه إليها نيتشه نقدا لاذعا ، إلى درجة أن تم تسمية حملته النقدية ضدّ هذه المؤسسة الدينية بـ" أعنف حملة في تاريخ المسيحية كلّها ، ولا يعادلها عنف وضرورة سوى الحملة الّتي قام بها كيركجورد على الكنيسة المسيحية . " (كامل ،ف،1993، ص 186)، وقد جرت هذه الحملة النقدية ضدّ المسيحية ، لأنّ التمثلات المسيحية لا تعير أيّ اهتمام ، ولا اعتبار لا للإنسان ، ولا لكرامته في الوجود، وإنّما تملي وتفرض عليه قوانين فوقيّة، زاعمة أنها صادرة عن الإله ، لذا تجب طاعتها دون مناقشة .

فالمؤسسة المسيحية قد أنتجت صورة إله " مضادٍ للإنسان ، وهي تنسب إليه من الأوامر ما يقف في وجه الطبيعة البشرية ، ويعيق سيرها التّلقائي . " (كامل ،ف،1993،ص 187) ، ومن القوانين الّتي تؤكد عليها المسيحية نجد مسألة بالغة الأهميّة ألا وهي : أنّ الشر محدّد والخير محدّد ، وأنّ الشرّ لا يليق بالإله، فكل ما هو خير ينسب إليه ، وكل شر ينسب للإنسان .

ومقابل هذا الطرح يؤسّس نيتشه فلسفته بناءً على أنّ : قيمة الحياة ليست فقط في قوة الخير الّتي فيها ، وإنّما في وجود الشر أيضًا ، مبرزا أنّ الانسان يحتاج إلى إله يتّصف بالقسوة ، والمكر ، والعنف وحب التّدمير ،وكل إله مجرّدٌ من هذه الصفات لا داعي لوجوده، وهو الّذي يدعوه إلى أن يقول في كتابه " ضد المسيح " " أمّا عملية الخصي المنافية للطبيعة الّتي تجعل من

الرّب مجرد إله للخير فقط ، فسيكون هنا أمر غير مرغوب البتة ، ذلك أنّ المرء بحاجة إلى إله قاسٍ ، حاجته إلى إله الخير ، فالإنسان لا يمكنه أن يكون مدينا في وجوده الى التسامح وإلى محبة الإنسان ...أيُّ إله هذا الّذي لا يعرف سخطا ولا انتقاما ولا غيرة ولا سخرية ولا مكرا ولا عنفا ؟ إله ربُّما لا يعرف حتى سكرة حتّى الانتصار والتدمير؟ لا أحد سيفهم هذا الإله، فما داعي لوجوده إذًا ؟ "(نيتشه ،ف ،2011،ص ص 44،45) .

وعليه فإنّ الفلسفة النيتشوية لا تضع الشر في مقابل الخير كقيمة ، فالشرُّ هو نمط موجود ، وعندما تؤكد المسيحيّةُ على فكرة الخير والإله الخيِّر، لا يعني هذا أنّ الشر غير موجود، أو أنّه سيتلاشى بمجرد وجود الإله المسيحيّ .

إذنّ من هذا المنطلق يمكن القولُ أنّ الإله الّذي ينتقده نيتشه ، هو ذلك الإله الّذي ينظر الى الحياة بمنظار الازدراء والاحتقار، فهو " نقيضٌ للحياة ، عوض أن يكون تمجيدا لها، ونعم أبدية لإثباتها كبؤرة لإعلان العداء ضد الحياة والطبيعة ، وإرادة الحياة ، فالله كمبدأ لكل ثلب لـ الدنيا "ولكل أكاذيب الآخرة، الله الّذي يؤلَّه فيه العدم، وتحاط فيه إرادة العدم بالقداسة. "(نيتشه ، ف،2011، ص48).

بناءً على ما سبق نستخلصُ من هذا النص دلالةَ أنّ فكرة الله تدعو الإنسان إلى العزوف عن الأرض والحياة ، وإغرائه بالآخرة ، هذا المخدِّر الّذي استعملته المسيحية لتخدير عقول الناس ، طمعًا في الجنّة الموعودة ، قد خدّر الفئة الضعيفة التي يئست من الحياة ولم تمتلك القدرة والقوة لمواجهتها ، فوجدت المهربَ في فكرة العالم الآخر مؤمنة بمبدأ "المسيحيّ القويّ سيلقى العذاب والعقاب في الآخرة ، أما المسيحيُّ الضعيف فسيجازى بالجنة " فجزاء النفور من الحياة ونبذها هو الجنة " "والضعفاء هم الذين أصابهم القنوط من إنجاز الوعود في هذه الحياة ، لذلك تراهم يزهدون فيها من أجل عالم آخر ... ففي الآخرة يعاقب المسيحي القويّ، وأما الضعفاء والعبيد فسيدخلون الجنّة، لأنهم نجحوا في كبت أفضل دوافعهم عن الحياة ." (عبد السلام علي جعفر ،ص،1999،ص 345) .

من هنا انتبه نيتشه إلى هذه الحيلة التي حيكت من قِبَلِ المسيحيّة للسيطرة على الإنسان فمثل هذه الخدعة ، لن تنطوي على ذوي العقول الحرّة ، والعقل الذي يتحرر من فكرة أنّ الله هو الضامن الوحيد لكل شيء ، ضامن للمعتقدات والتصورات والأصنام السّائدة ، ولذلك أطلق نيتشه صيحته المتمثلة في " موت الإله" ،التي قصد بها نهاية التفكير الميتافزيقي فما المقصود بنهاية الميتافيزيقا؟ إنّ نهاية الميتافيزيقا عند نيتشه ترتبط أساسًا بحملته النقدية على الفلسفة السقراطية والافلاطونية، باعتبارهما أحد أسباب انهيار الفكر اليوناني الأصيل ، كما إنّها تعني نهاية التفكير بمفهومه المسيحي .

وعلى ذلك فنهاية الميتافزيقا تعني : نهاية التفكير الذي ينصِّبُ العقل في الصدارة ، وبدايةً لفتح درب التفكير اللّاعقلاني.

انطلاقا مما سبق ، وقبل التطرق إلى مفهوم الإنسان الأعلى كبديل لمفهوم " الإله" نستنتج أنّ دلالة موت الإله عند نيتشه تتلخص فيما يلي :

أ / موت الله الكنسيّ :

إنّ اعلان نيتشه عن " موت الإله"، يؤكد أنّ صلاحية مثل هذه الفكرة واقعيا قد انتهت، ولابد من الدخول في مرحلة جديدة فـ" إمّا أنّ نميت هذا الدين، وإمّا أنّ يميتنا، إنني أؤمن بالعبارة التي قالها القدماء الجرمانيّون، يجب انّ تموت جميع الآلهة."(Jaspers,k,1950,p 247) لأجل خلق إله جديد ، إله لا ينفي قدرة الإنسان على الخلق والإبداع والحرية فبمجرد قتل الإله " يستردُّ الإنسان حقوقه المسلوبة التي انتزعتها منه المذاهب المؤلهة ... فحينما ننكر وجود الله فإننا ننقذ العالم ونطلق القوة الابداعية "(مبروك ،إ،2011،ص 188) .

فعصر بداية الابداع والتجديد يستدعي ماذا ؟ إنّه يستدعي قتل الإله.

ذلك أنّ الإله كما صورته المسيحية هو الذي كان يحُول بين الإنسان والإبداع فالإنسان في عصر مملكة الإله المسيحي ، كان مجرّدَ دمية تتلاعب به المؤسّسة المسيحية، وتسيّره كيفما تشاء ، وبمجرد موته يتحرر الإنسان من كلّ قيد ، ويصبح سيّدا على نفسه .

ب/ القضاء على فكرة العالم الآخر:

يمكن القولُ " إنّ موت الله هو أوّلًا موت الآخرة ، وإلغاء الإيمان بالعالم الآخر ." (سوفرين،ب ، 2002، ص 49)، وهو إعادة الاعتبار للعالم المعيش " الأرض" الّذي تم تناسيه باسم مسميات الدين .

وهنا تجدر الإشارة إلى أن المؤسسة المسيحية ليست الوحيدة التي غيّبت الأرض والحياة من دائرة اهتماماتها ، فالأمر نفسه نجده في الفكر الفلسفي ، فمِن الفلاسفة منْ أنتج فكرًا فلسفيا ميتافيزيقيًّا مصبوغًا بصبغة دينية ، فالفلسفة والفلاسفة من وجهة نظر نيتشه لم يكونوا يوما بمعزل عن الرؤية الدّينية اللاهوتية الّتي تسعى إلى القضاء على بريق الحياة ، وإلى تهميش دور الإنسان ، فالفلسفة ما زالت إلى غاية عصر نيتشه تكتسي حلّة دينية .

ذلك أنّ الرؤية الدّينية للوجود لازالت قابعة في بيت الفلسفة العتيق ، تأبى مفارقته يقول نيتشه : " لكنَّ الفلاسفة ... قد اعتادوا أكثر أنْ يعتبروا كل الأحاسيس الّتي يكتشفونها في أنفسهم جوهرا أساسيا في الإنسان ، وأن يدعوا بذلك حتى مشاعرهم الدّينية تؤثر بشكل كبير على النّسيج الفكري لمناهجهم ." (نيتشه ،ف، 1998، ص 75) .

ومن بين هؤلاء الفلاسفة نجد " أفلاطون " Platon(ق.م 347-427) ، فالمسيحية عند نيتشه هي مجرد أفكار أفلاطون، تحت مسمًّى جديد " فالوجود الحقيقي عند أفلاطون انّما يتمثل فيما يسميه وجود "المثل"، فهو يميّز بين عالمين عالم الأشياء ، أي هذا العالم المحسوس، وما يسميه "عالم المثل". "(النشار ، م ،1998،ص 88) ، معتبرا العالم الأرضي الذي هو منبع الإنسان الأعلى ، عالم الفساد والخطأ ، والعالم العلوي عالم الحقيقة الوحيد متأثرا بذلك بأستاذه " سقراط "Socrate (ق.م 399-469) ، الّذي يعتبر عند نيتشه سببًا في انحراف الفكر عن مساره الصّحيح ، فسقراط هو "الذي قاد الى تحوّل ثقافي عميق ، والذي استمر إلى أيّامنا هذه "(Safranski ,R, 2000, p55) ، ذلك أنّه قام بالدّور نفسِه الّذي قامت به الأفلاطونية والمسيحية من ازدراء للحياة ، وقد بلغ في نبذه للحياة درجةً جعلته يقول لحظة احتضاره " ما الحياة سوى مرضٍ عضال ." (نيتشه ، ف ،1996،ص 17) .

أضفْ إلى ذلك أنه صاحب معادلة العقل = الفضيلة = السّعادة . والتقيّد بمثل هذه المعادلة السقراطية يعني الابتعاد عن كل ما يمتُّ بصلةٍ إلى الغرائز واللاشعور ، والأبعاد الحيوية الفاعلة في الإنسان والحياة لصالح المنطق والجدل والعقل ، وبما أنّ نيتشه فيلسوف متمرّدٌ معروف بقلبه للموازين ، فها هو ذا يتمرّد على هذه المعادلة السّقراطيّة ، وينفيها ليبدع لنا معادلة جديدة مفادها : العقل + الفضيلة = الانحطاط .

الغرائز+ اللاشعور " الأبعاد الحيوية الفاعلة في الإنسان" + حب الارض " الحياة" = السّعادة .

ذلك أنّ " ماهية الحياة وجوهرها لا تمتُّ بصلة إلى المنطق والمعقول ، وإنّما مع الغريزة الحيوية . "(Safranski , R,2000,p38) .

ج/ انهيار التفكير الميتافيزيقي :

يذهب بيار هيبر، سوفرين في كتابه "زرادشت نيتشه " للتّعبير عن دلالة موت الإله قائلا إنّ موت الإله يشير إلى " انهيار نمط وجود تفكير سليّ – انهيار يشكّل الطّور الأوّل من مجيء نمط تفكير إثباتي ."(سوفرين ، ب ، 2002، ص 51) .

بمعنى أنّ نهاية نمط التفكير الميتافيزيقي ،الذي ينفي الحياة ويزدريها ، وبداية التفكير الذي يثبت الحياة ، والكفيل بمهمّة إثبات الحياة هو الإنسان الأعلى ، إلا أنّ هناك قراءاتٍ تؤكد أن نيتشه لم يبلغ أبدا تجاوز الفكر الميتافيزيقيّ ، من بين هذه القراءاتِ قراءة مارتن هايدجر Martine Heidegger (1889-1976) ، الذي تناول فلسفة نيتشه في كتابيه : نيتشه 1 ونيتشه 2 ، مؤكدا أنّ نيتشه لم يبلغ أبدا تجاوز الفكر الميتافيزيقيّ ، وفي المقابل هناك قراءات معاصرة تؤكد أنّ نيتشه ضرب قدما خارج الفكر الميتافيزيقي كقراءة "لوك فيري" لأنه فتح لنا طريقًا

جديدًا في الفردانية لم يكن موجودًا من قبل قائلا : " الجمالية النيتشوية لا تنخرط في الميتافيزيقا ، لأنّها فتحت طريقًا جديدًا في الفردانية لم يكن موجودًا من قبل" Ferry , L ,1990 (,pp220-221) .

3/الإنسان الأعلى :

لقد أعلن نيتشه عن ظهور الإنسان الأعلى على لسان زرادشت " نبي الحياة في فلسفة نيتشه" في كتابه الموسوم : " هكذا تكلم زرادشت "وقد قوبل هذا بالرفض من قِبَل العامّة إذ انكروا وجود مثل هذا الإنسان المختلف عن القطيع ، مدّعين أنهم جميعًا متساوون أمام " مملكة الرّب "، متغافلين عن أنّ الإله المسيحيَّ الذي عبد لمدة طويلة قد مات ، وقد حان وقت مولد الإنسان الأعلى الذي سيخلِّص العالم الغربي من العدميّة السائدة .

فالحياة العظيمة عند نيتشه هي تلك الحياة التي تنزع الى اللامساواة ، كبديل لفكرة المساواة التي بسطت نفوذها زمن الحياة الارتكاسية ، فالفلسفة النيتشوية ترفض وضع (الأعلى – الأدنى) ، (القوي – الضعيف) ، في الكفة نفسها، وهذا ما يتضح جليًّا من خلال قول زرادشت " أيّها الرجال الرّاقون تعلموا منّي قولي : لا يؤمن أحد في الساحة العمومية بالإنسان الأرقى " ثمّ " إنّ العامّة تتغامز قائلةً : " إنّنا جميعا متساوُون" أيُّها الرِّجال الراقون إنّ طبقة الشعب تنكر الإنسان الأرقى، فهي ترى الناس على اختلاف طبقاتهم إنسانًا واحدًا أمام الله ". (نيتشه ، ف ، 2014، ص 321).

وعليه فإنّ الإنسان الأعلى الذي يمثل حجر الأساس في فلسفة نيتشه ، لا يمكنه بأيِّ شكل من الأشكال أن يتساوى مع أيِّ فرد من أفراد القطيع ، ذلك أنّ " كلمة الإنسان الأعلى تشير إلى نمطٍ من النّاس معارض للإنسان الحديث ، معارض للإنسان الطيب ، معارض للمسيحيين والعدميين الآخرين ، وهي كلمةٌ في فم زرادشت محطِّمًا الأخلاقيات." (نيتشه ، ف ، 2005،ص 73) . قالبًا موازين الفكر جاعلًا من كل ما كان يعتبر عظيما أسفل الهرم ، وكلِّ مركون في زاوية الهامش ، وكلّ ما اعتبر من قِبَلِ المثاليين منبوذًا ومحتقرًا، تم وضْعُه من لَّدن الإنسان الأعلى في قمّةِ الهرم " فمفهوم الإنسان الأعلى يصبح أعظمَ حقيقةٍ - وكلّ ما سمّي عظيما في الإنسان يكمن في الأعماق ، بعيدا عمّا لا يمكن قياسُه . "(نيتشه ، ف ، 2005،ص ص 138،137) ،فكل ما نُظِر إليه على أنّهُ الخيرُ الأسمى، يصبح شرًّا، وكلَّ ما نُظِر إليه على أنه شرٌّ يصبح خيرًا .

نفهم إذًا أنّ المهمّة التي يوكلها نيتشه للإنسان الأعلى هي مهمّة خلق قيمٍ جديدة ، قيمٍ تتصالح مع الحياة وتخدمها ، فإشكالية الحياة إشكالية بالغة الأهمية في فلسفة نيتشه، إلى درجة تجعل فلسفته تسمّى فلسفة الحياة، لشدّة شغفه بها، وبالإنسان ذلك أنّ " الحياة عند نيتشه هي الحقيقة الوحيدة"(Blondel,E,2001, p50) المعترف بها.

و نظرا إلى أهمية الحياة والأرض في فلسفة نيتشه كان يتملكه " طموح في استعادة العالم الأرضيّ، وإيجاد معنى للأرض "(Besnier , j,m,1998, pp 355,356) ،وعلى هذا الأساس تم الرّبطُ بين الإنسان الأعلى والأرض.

أ/ الإنسان الأعلى والأرض :

يرى نيتشه أنّ الأرض قد أُرهقت وشاخت بسبب الفكر المتعالي ، ولذلك تملّكه (أي نيتشه) هاجسُ إعادة إحياء الأرض ، واستعادة سيادتها المسلوبة من قِبل المندِّدين بسيادة " العالم المفارق "، وهاجس تمكين الإنسان من استعادة ذاته، وتملّكِها، وفكِّ قيوده المقيدة باسم إجبارية طاعة المثل العليا ، التي يسميها نيتشه الأصنام ، أصنام العقل والأخلاق واللّاهوت... .

و عليه فإنّ هذا الحدث العظيم الذي يتبنى الأرض موطنًا وحيدًا، والإنسان حرًّا، لا عبدًا، لن يعرف الميلاد إلا بعد مولد " الإنسان الأعلى "، هذا الإنسان الذي ينتمي إلى العالم السُّفليّ، لا العالم العلويّ ، وهذا ما يؤكده زرادشت بقوله " إنه من الأرض ، فلتتجه إرادتكم إلى جعل الانسان المتفوّق معنى هذه الأرض، وروحًا لها "(نيتشه ، ف، 2014، ص 41)، فهو وحده القادر على إثبات الحياة ، وتوكيدها ، والنظر إليها مصدرًا للسّعادة وللفرح وللنّور الذي يكشّر وسط الظلام هادِمًا الرؤية الميتافيزيقية التشاؤمية للحياة التي انغرست في عقول الناس، فلقّنتهم درْسَ أنّ الحياة مصدرٌ للتشاؤم والشرور والحزن ، ووحده القادر على مقاومة الحياة ، وعيشها بكل ما فيها من آلام وأفراح ، فالإنسان الأعلى إنسانٌ مبدع و" على المبدع إذا شاء أنْ يكون هو بنفسه طفل الولادة الجديدة ، أنْ يتذرع بعزم المرأة التي تلد فيتحمل أوجاع مخاضها ."(نيتشه ، ف ،2014، ص106).

إنّ استعمال نيتشه في هذا القول مفهومَ " الطفل " وربطه بـ " المبدع" يؤكِّد على أنّ مفهوم اللّعب الذي هو ميزة " الطفل" ، مفهوم أساسيٌّ في فلسفته ، وهذا ما جعله يشير إلى أنّ أول ما لاحظه زرادشت عند وصوله إلى المدينة هو مشهد البهلوان "واذا وصل زارادشت إلى المدينة المجاورة ، وهي أقرب المدن إلى الغاب ، رأى الساحة مكتظّةً بخلق كثير، أعلنوا من قبلُ أن بهلوانيا سيقوم هناك بالألعاب . "(نيتشه ، ف ،2014، ص 41) .

إنّ هذا المشهد ليس وليد الصُّدفة، فنيتشه هو الرّاسم لمبادئ فلسفة اللعب ومعالمِها، وهو الّذي جعل مِن اللّعب الذي هو خاصية الطفل ، آخرَ رمز يتوقف عنده زرادشت في رحلته للوصول إلى فكر مخلّص للحياة ، إذ أنّه فكر قادر على إزاحة الفكر الميتافيزيقي المنحطّ.

وعليه فإنّ التفيكر المنحطّ الذي يدعو نيتشه لتجاوزه، قد عبّر عنه باستعماله لرمزية الجمل والأسد ، فنيتشه يلخِّص التفكير الفلسفي من خلال مراحلَ ثلاثٍ ، وكل مرحلة هي تجسيد لرمز ، رمزية " الجمل - الأسد - الطفل "، وقد أعلن عن هذه الرموز في كتابه " هكذا

تكلم زرادشت " في نصٍ معنون بـ" التحوّل في ثلاثِ مراحلَ "يقول " سأشرح لكم تحوُّل العقل في مراحله الثلاث، فأنبيكم كيف استحال العقل جملا،وكيف استحال الجمل أسدا ، وكيف استحال الأسد اخيّرا فصار ولدا . " (نيتشه ، ف ،2014، ص 53) ويكمل نيتشه كلامه بشرح دلالة كل رمز ، ويبدأ برمزية الجمل " يفتش العقل السليم عن أثقل الأحمال فينيخ كالجمل ظهره، متوقّعًا رفع خير حملٍ إليه ."(نيتشه ، ف ، 2014، ص 53).

ولقد استعمل نيتشه هنا دلالة الجمل للإشارة إلى الفكر الفلسفي المنحطّ ، فالفكر الفلسفي في هذه الفترة كان كالجمل يحمل أعباء الفكر المريض دون مناقشة ، ذلك أنّ العقل كان مغتصَبًا من قِبَلِ ذوي الفكر الذي لا يخدم لا الحياة ولا الإنسان، وللتّخلص من هذا الحِمل ، عرف العقل تحوُّلًا ثانيًا ، جسَّدَهُ نيتشه في رمزية الأسد ، الذي يعارض رمزية الجمل بهدف إزاحة حمولته .

إنّ الأسد هو درب الحرية، يرمز للقوة والرفض معًا ، شاقا طريقه في الصحراء لمواجهة التنين ، وقد استعمل نيتشه كلمة التنّين للدّلالة على الفكر الذي سيطر على الإنسان ، تحت مبدأ " يجب عليك " ليرفضه الأسد ويستبدله بكلمة "أريد"، وهنا يرجع السيادة للإنسان إذ "ينقلب العقل أسدًا لأنه يطمح الى نيل حريته ... فهو يستعدُّ لمكافحة التنين والتغلب عليه ... إنّ التنين هو كلمة يجب عليك، وعقل الأسد يريد أن ينطق بكلمة أريد."(نيتشه ، ف ، 2014 ، ص 54).

إنّ الأسد امتلك شجاعة الرفض ، لكنه لم يمتلك القوة الكافية التي تؤهله لإعادة خلق القيم الجديدة، وهنا ينتقل العقل إلى تحوُّلٍ ثالث ، جسّده نيتشه في رمزية " الطفل " "ذلك أن الطفل طُهْرٌ ونسيان ، فهو تجديد ولعب وعجلة تدور على ذاتها، فهو حركة البداية وعقيدة مقدسة . "(نيتشه ، ف ، 2014، ص 55) ، وهذا الطفل ليس سوى الإنسان الأعلى الذي يوكل إليه نيتشه مهمة إصلاح البشريّة ، فالإنسان الأعلى هو ذلك الإنسان المتمتع بالقوة والقدرة الّتي تمكّنه من تحطيم الأصنام الفارغة وخلق قيم جديدة تهدف إلى العلاء بالحياة .

4/خاتمة:

من خلال معالجتي لإشكالية نهاية الميتافيزيقا ، ومولد الإنسان الأعلى في فلسفة نيتشه توصلت إلى بعض النتائج أبرزها :

أحدث نيتشه تغييرا في مسار الفكر الفلسفي ، بفتحه دروبًا جديدةً، لم نعهدها من قبل من خلال صقل فلسفته بكل ما من شأنه أن يثبت الحياة ، فنيتشه محارب لصالح الحياة والأرض والإنسان ، وفي سبيل تأكيد الأرض وتحرير الإنسان من براثن الانحطاط قام بهدم كل الأصنام التي حالت بين الإنسان والأرض ، وهي أصنام العقل وأصنام الفلسفة وأصنام الأخلاق

وأصنام الدين... " ، وعملية الهدم تستتبعها عملية البناء والإبداع ، إبداعِ إنسان جديد يدعى " الإنسان الأعلى" الذي يُعتبَر تجسيدا للقوة ، والتفوق والاندفاع، والشوق إلى الحياة وتُجاهَها .

المصادروالمراجع:

كتب Books

- Besnier(J.M) .(1998).Histoire de la philosophie moderne et contemporaine . Paris : bernard Grasset.

.-Ferry(L).(1990).Homo Aestheticus .paris :Grasset.

- Jaspers(k). (1950) .Nietzsche, Introduction à sa philosophie, (Trad : Henri Niel). Paris : Gallimard.

- Safranski (R). (2000). Nietzsche biographie d'une pensée. (1er édition) (Trad : Nicole casanova). Paris.

- سوفرين ، بيار هيبر . (2002) ، زرادشت نيتشه ، (أسامة الحاج ،مترجم) ، (ط 2) ، القاهرة ، مصر : مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .

- عبد السلام علي جعفر، صفاء. (1999) ، محاولة جديدة لقراءة فريدريك نيتشه ، (د.ط)، السويس : دار المعرفة الجامعية.

- كامل، فؤاد. (1993)، أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، (ط1)، بيروت، لبنان : دار الجيل .

- مبروك، أميل. (2011)، الفلسفة الحديثة، (د.ط)، بيروت، لبنان: التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.

- النشار، مصطفى. (1998) ، مدخل لقراءة الفكر الفلسفي المعاصر ،(د.ط) ، القاهرة ، مصر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

- نيتشه ، فريدريك . (1996) ، أفول الأصنام ،(حسن بورقية ومحمد الناجي ، مترجمون)، (د.ط)، ألرباط، المغرب : أفريقيا الشرق.

- نيتشه ، فريدريك . (1998) ، إنسان مفرط في إنسانيته الجزء 1،(محمد الناجي ، مترجم) ، (د.ط)، ألرباط،المغرب: أفريقيا الشرق.

- نيتشه ، فريدريك . (2005) ، هذا هو الإنسان ،(محمد عبد المنعم مجاهد ، مترجم)، (ط1) ، بيروت ، لبنان : دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع .

- نيتشه ، فريدريك . (2011)، نقيض المسيح، (علي مصباح، مترجم)، (ط 1). بيروت، لبنان: منشورات الجمل.

- نيتشه ، فريدريك .(2014)، هكذا تكلم زرادشت ،(فيلكس فارس ، مترجم) ، (د.ط) ، القاهرة ، مصر : مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة .

مقالات المجلات Journal & Magazine Articles=

- Blondel(E), (2001), L'amour métaphysique de la musique, magazine litteraire,hors-serie(vol. 4 N °3, pp.50-53), Larousse, paris.